

فحة قصيرة..

■ حين وقعت عقد العمل في المؤسسة مديرا للمبيعات، لم يكن في ذهني سوى أمر واحد، وهو أن أعمل بشرف وجد وإخلاص، وأن أكسب رزقي حالاً لا يشوبه حرام. ذلك أن أكثر حديث والدي معي قبل سفري للعمل خارج البلاد كان عن الأمانة، وضرورة الالتزام بها، وأن الأمانة

تاج على رأس صاحبها، وإذا شاب الأمانة أية شبهة فإن سمعة صاحبها تسقط كما تسقط سمعة الفتاة إذا لاكتها الألسن، وقد أيقنت أن الأمانة تقتضي مني أن أعطي عملي كل ما أستطيع من جهد.

ومن هذا اليقين كان منطلق عملي كله، فقد كنت أحضر صباحاً ملتزماً بوقت الدوام لا أنقص منه شيئاً، وكنت أعطي عملي حقه من الرعاية فأسعى جهدي إلى إرضاء الزبائن وتأمين طلباتهم، بما يؤمن لصاحب المؤسسة أكبر ربح ممكن حلال. وما كنت أغادر المؤسسة مساء إلا حين أتيقن أنه لن يحضر زبون واحد بعد ذلك، وأكون قد نظمت أوراق مبيعاتي، وهيات كشوف حاجات

المؤسسة وما نحتاج إلى شرائه في اليوم التالي.

كنا في المؤسسة وفي قسم المبيعات أربعة موظفين، وثلاثة عمال مساعدين، ومنذ بدأت العمل كنت أعامل زملائي والعمال بكل احترام وأدب ولطف، وأتخرج أن أساء إلى واحد منهم مهما بدر منه، وقد قام بيني وبين الجميع مودة وتكافؤ سريع، واحترام متبادل، وكثيراً ما كنا نجلس إذا لم يكن لدينا عمل؛ فنحدث ونتناقش، ونتبادل الآراء والأفكار، أو نمزح ونضحك ونحن نشرب الشاي. وكان كل واحد يطرح همومه ومشكلاته، ويتحدث عما يحس ويعاني، وكانت سمة الحديث الرئيسية الشكوى من الغربة، ومن إرهاقات الحياة والمعيشة وتكاليفها.

واتسعت المعرفة والصداقة لتشمل العاملين والموظفين في المحلات والمؤسسات المجاورة، وتوثقت عرى الصداقة بين الجميع، فإذا حان وقت استراحة الظهيرة أحضر كل منا طعامه، وجلسنا نأكل كأننا أسرة



الدرس

واحدة، وكثيراً ما كانت تتناثر التعليقات، أو تعلق الضحكات، أو ترتفع الأصوات، مؤيدة لفكرة ما أو مسفئة لها. على أن الموضوع الرئيس الذي كان يطغى على كل حديث وفكرة هو الشكوى من هموم الحياة، وارتفاع الأسعار، وعجز الرواتب عن تأدية وظيفتها في حياة حرة كريمة وكان حديث الجميع يدور حول هم واحد؛ هو أن يتمكن الفرد منا من ادخار ثمن دار يشتريها إذا رجع إلى بلده.

وكنْتُ دائماً أبدي استغرابي من السرعة والعجلة التي يريد كل واحد أن يحقق بها طموحاته، وكنت أقول: إننا يجب أن ننظر إلى الأمور نظرة واقعية، فالإنسان يصعد السلم درجة درجة، ولو قفز دفعة واحدة لوقع واندقت عنقه، وما على المرء إلا أن يعمل ويتوخى الرزق الحلال، وما كتبه الله له سيناله، ولننظر كيف خلق الله عز وجل السموات والأرض في ستة أيام، ولو أراد أن يقول لها كوني لكانت، لكنه أعطانا درساً يجب أن نستفيد منه في حياتنا.

لم تكن أفكاري تلقى القبول دائماً، بل كثيراً

ما أنكر علي بعضهم أقوالي، وحاول تسفيهها، متسائلاً إلى متى سنبقى متحمليين آلام الغربة والبعد عن الأهل والوطن، وإذا كان ما نقبضه من أجر لا يكاد يكفي مصروفنا هنا، ونحن لا نكاد نستطيع ادخار القليل فمعنى ذلك أننا سنعيش ونموت مغتربين.

وكم كان يغطيني ويثريني ما كنت أسمع من بعضهم حين كان يصير على أننا يجب أن نحصل على المال بأية وسيلة ومن أية طريق.

ولكن ثورتي مع توالي الأيام - بدأت تضعف شيئاً فشيئاً، وذلك من كثرة ما تردد على سمعي هذا الكلام، حتى أصبح كلاماً عادياً أو شبه عادياً، كنت كلما احتد النقاش وتصارعت الآراء والأفكار أحس أن هناك شيئاً غريباً يبعث الشك والحذر في نفسي، فقد كان أحد الموظفين معنا واسمه أحمد لا يتكلم أبداً، ولا يبدي رأياً ولا فكراً، ويمتنع عن المناقشة، ولا يفصح عن اعتقاده، بل كان يكتفي بالاستماع وعيناه تجولان ببطء

بقلم: محمد سعيد المولوي

التالية؟! سيأتي الموت يا صاحبي، وسنترك كل شيء هنا، ونذهب إلى هناك، إلى الدار الآخرة لنحاسب على ما كسبنا، ومن أين سنحصل على المال يوم القيامة لفرده على أصحابه؟!

أم تريدني أن أقول لكم يجب أن نبقى ملتزمين بالأمانة حريصين على الرزق الحلال.. وهذا الواقع الذي أعيشه ماذا أصنع فيه؟! لو أن أمي مرضت ما وجدت أجر الطبيب ولا ثمن الدواء. وهؤلاء الأخوات البنات الثلاث اللواتي حملني أبي همهن ومضى إلى ربه مستريحا من عناء هذه الدنيا، لو أن واحدة منهن خطبت فمن أين أؤمن لها جهازها وما تحتاجه العروس؟!

قلت: يا أخانا إن الله قدر الأرزاق للعباد بحكمته التي لا يمكن أن ندرکہا وبهذه الحكمة أقام السموات والأرض، ومهما بلغنا من ذكاء فإننا لن نكون قادرين على معرفة إرادة الله فيما وهب عباده من الرزق. ألم يقل: «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»، فكم من فقير قد ضمن الجنة بفقره، وكم من غني ضمن النار بغناه، والأمر أولا وآخرًا بيد الله ثم بيدنا فيما نصنع، ونحن في موطن ابتلاء واختبار، والله يرى أعمالنا ويثينا عليها أو يؤاخذنا بها.

قال أحمد: أنا معك فيما ذكرت، وليس عندي شك في ذلك، ولكن حديثكم المكرر أثار في نفسي سؤالاً وهو: هل إذا اشتريت بضاعة للمؤسسة بسعر السوق وبذلك جهدي في استخلاص أرخص ثمن لها من البائع، ثم أعطاني البائع عمولة وأخذتها لنفسني، هل يكون هذا المال رزقاً حراماً؟!

قلت بالطبع هو مال حرام.

قال: ولم؟!

قلت: أنت تأخذ هذا المال مقابل أي شيء صنعت؟!

قال: أولاً أنا أبذل كل جهدي في الحصول على أقل ثمن للبضاعة، فإنا لا أخذ هذا المال مضافاً على ثمن البضاعة كما يصنع حسن، وثانياً أنا أشتري بأقل الأسعار الموجودة في السوق. فلا أفرط في حق صاحب المؤسسة، وثالثاً هذا المال يعطيني إياه البائع حتى أبقى رزونه، وأتردد عليه دائماً فلا أشتري من غيره.

قلت: هذه القضية لم تختلف مع هذه التقنيات التي تقدمها، فبذلك قصارى جهدي للحصول على البضاعة بأرخص الأسعار أمر طبيعي تفرضه عليك الأمانة لعملك. وكونك تشتري بأقل الأسعار الموجودة في السوق ليس أمراً مطرداً، إذ هذا يقتضي إحصاء لكل الأسعار المعروضة للسلعة، وما أظنك تفعل ذلك، وحجتك الثالثة تبطل حجتك الثانية فإن التاجر قد يعطيك اليوم بسعر رخيص ويعطيك العمولة لتصبح رزونه، ولكنه في مرات قادمة وبعد أن تطمئن إليه يمكن أن يبيعك بالسعر الذي يريد وبأكثر مما في السوق، ويستخلص منك ما كان قد قدمه إليك. أنظن التاجر أبلة ليقدّم لك المال دون منفعة تعود عليه. إن التجار من أذكي وأبرع الناس، وهم الأقدر على استخلاص أموال الناس من بين أيديهم برضاهم، وأنت الآن تمارس بعض التجارة وترى بعينك، وفي الواقع كيف تكون التجارة؟ فكيف تخدعك هذه الحجج التي توردها؟!

ثم قل لي يا أحمد: بأي حق أنت تأخذ هذا المال.. هل نسيت ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أحد عماله على الصدقة، حينما جاءه بالمال وقال: هذا لكم وهذا أهدي إلي؟!

من وجه إلى وجه، وبجمود ظاهر ثم تطرقان في الأرض.

كان صمت أحمد يبعث الريبة في نفسي، وكنت أسأل ذاتي، أيسكت أحمد لخوفه من أن يكون هنا من ينقل الكلام إلى صاحب المؤسسة، فهو لا يريد أن ينقل عنه كلمة يمكن أن تسيء إليه، أم أنه يسكت لأنه عاجز عن النقاش وإبداء الرأي، أم لأنه يرى أن لا جدوى من الكلام.

كانت هذه الأسئلة تراودني كلما احتدم النقاش، وكنت أتحين الفرصة لأن ألقى أحمد وحيداً حتى أسأله عن سر صمته، فلم أشأ أن أسأله أمام الآخرين؛ حتى لا أسبب له حرجاً، حتى كان يوم ذهب الموظفان الآخران لإحضار بعض البضاعة من السوق وبقينا وحيدين، واغتنمت الفرصة فطرحته عليه سؤالاً مباشراً قائلاً: يا أحمد أنا أستغرب وضعك، فعلى كثرة النقاش والكلام والتعليق لم أسمع منك كلمة واحدة، ولم تبد رأياً، ولم تناقش فكرة. بل أنت تكفي بالسمع والنظر فقط، فما هي قصتك؟

نظر أحمد إلي وابتسم وقال وهو يطرق برأسه: لا شيء.. لا شيء.

قلت: كيف ذلك، ما بقي أحد إلا وتكلم، وقال وعلق وصرح، إلا أنت، لم أر منك إلا الصمت، والصمت يخفي وراءه دائماً شيئاً، فما هي حكايتك؟

قال: لا شيء.. دعني وهي.. ويكفييني ما بي.

قلت: أتشك في صداقتي وأخوتي لك؟

قال: لا.. ولكن دعني فذلك أفضل.

قلت: حدثني عن همومك، فأنا أحس أنك مهموم، والإنسان قوي بأخيه، وما يعجز المرء عن إيجاد حل له قد يجد له عند الآخرين حلاً.

قال: هل تعلم أن نارا تستعر في داخلي وأنتم تتكلمون، وأن الأفكار تتصارع في ذهني، وأحس أن رأسي يكاد ينفجر، وأحس باضطراب نفسي كبير. أترى زميلنا حسن الذي يتكلم عن الشرف والأمانة والرزق الحلال، إنني أعلم ومنذ زمن بعيد أنه يسرق من مال المؤسسة، فهو يشتري حاجات المؤسسة، ويزيد في قيمة كشف البضاعة، ويتقاضى عمولات وحسومات، ويضعها في جيبه، ولا يردّها على المؤسسة، ثم يجلس ليحدثنا عن الشرف والأمانة وذلك ليغطي وضعه السيئ.

ما تريدني أن أصنع وأنا أسمع هل أقول له إنك كذاب ولص؟!

بالطبع إنه سيكذبني، وهو أقدم مني في المؤسسة، وأثبت قدماً، فهو قريب الشريك الآخر فيها، ولو اصطدمت معه فسيكون جزائي الطرد من المؤسسة. وأنا تركت أما وثلاث أخوات في بلدي، وجئت هنا على أمل أن أكسب مالا وفيرا يؤمن حاجات أمي وأخواتي، ويمكن أن يفتح لي طريق المستقبل. وأنت تعلم مقدار الأجر الذي أقبضه، إن أرسلته إلى أهلي حرمت نفسي، وهو لا يكاد يكفيهم وإن أبقيته معي فقد حرمتهم لقمة العيش، وهن نساء لا يستطعن العمل. فأنا مضطر لتوزيع دخلي بيني وبينهم ونعيش جميعاً على الكفاف، وما حصلت من حياتي سوى الغربة والآمها. وأنا دائماً مشغول البال نحو أهلي ومستقبلي. وأخاف إن تكلمت أن يكون حديثي سبب قطع رزقي، وحين تتحدثون عن المال وجمعه والحلال والحرام أجد نفسي بين نارين: نار الصبر على الرزق الحلال، ونار الرغبة في المال، وتأمين المستقبل، ولو كان المال حراماً. وأنا لو أردت المال الحرام لحصلت عليه بأيسر سبيل، إذ يكفي أن أهدد «حسنًا» بإفشاء سره، حتى أحصل على قسم مما ينال من عمولات.

أعرفت لماذا أظن ساكتاً، فماذا يمكن أن أقول؟ هل أقول لكم تعالوا نسرق جميعاً، تعالوا لنخون من آمننا على ماله ورزقه، حتى نؤمن لأنفسنا البيت والزوجة والسيارة، ونعيش في رفاهية وسعادة؟!

ولنفرض أننا صنعنا ذلك وحصلنا على ما نريد فما هي الأحداث

بلده وتحمل آلام الغربة من أجل العمل، لذا فهو يفرض عليه الراتب الذي يريده، متيقنا أنه لن يستطيع الرفض، وهذا الراتب لا يكافئ الجهد الذي يبذله العامل بل هو أقل.. لذا إن استطاع أحدهم أن يحصل على فرق الراتب أخذه، ولو كان ذلك عن طريق زيادة أسعار البضاعة على قائمة المشتريات، أو عن طريق أخذ العمولات. وبذلك يكونون قد حصلوا حقوقهم الملهومة.

كنت أحس ومع توالي الأيام بضغط نفسي قوي، وصراع عنيف في داخلي، فقد كنت جاهدا أحاول التمسك بمبادئ وأخلاقي في البيع وأحاول التمسك بمبادئ وأخلاقي في الشراء. وكنت أخشى أن أضعف أمام أقوال الآخرين، فقد كانت أقوالهم تتخرف في عقلي ونفسي، وتحاول إضعاف عزيمتي ومقاومتي، وكنت أحس بنفسي تضعف أحيانا فأعود عليها بالتأنيب، وأحاول شحنها بمزيد من المناعة والقوة، وتقويتها بمزيد من العزيمة والصلابة، وكنت أعلم أن الإنسان إذا سقط مرة فسيكون سقوطه مرات عديدة أهون وأسهل. ومع ذلك فقد كنت متأكدا أن ضغط الظروف المادية قوي جدا، وأنه خير حليف للانحراف والخروج عن المبادئ والمثل.

ووجدتني مرة بعد مرة أعود إلى ما طرحته من حجج وأفكار، فأستعيدنها في ذاكرتي، وأقابلها بما طرحه أحمد والآخرين من آراء معارضة، وأحاول أن أجد قرارا حاسما أنهي به المشكلة، لكن كفة الأفكار المتضاربة كانت تعلق وتهبط من غير توازن، فأظل مضطربا قلقا دون أن أستطيع وبشكل جازم أن أوصل مبادئ وأفكاري.. وكان إحساسي سليما لا تشوبه شائبة، لكنني كنت أبحث عن حجة ودليل لا يتطرق إليهما الشك.. بل كنت أريد أن أجد الحجة التي أتغلب فيها على حجج الآخرين، وكنت أعجز عن ذلك لأن الآراء المتضاربة كانت تسبب لي صداعا، فأترك النقاش الذي كنت أديره مع نفسي، على أمل أن أتابعه مرة أخرى.

وجاء يوم لست أنساه ما حييت، فقد احتاجت المؤسسة إلى بعض البضائع، وذهبت إلى السوق، واستعرضت الأسعار في عدة محلات، ووجدت أفضلها وأرخصها، فاشتريت ما أحتهج من البضائع، وطلبت من البائع أن يهيئها ويأمر عماله بحملها إلى السيارة، ثم مدت يدي بثمان البضاعة إلى صاحبها.

أمسك الرجل المال وتفحصه وعده ثم اقتطع منه قسما ودسه في يدي وقال: لا تؤاخذنا كان بودنا أن نقدم لك فئجان شاي فما استطعنا هذا ثمن فئجان الشاي هدية من المحل لك.

جمدت في مكاني، وتسمرت عينا في وجهه، وأصابني ذهول مصحوب بدوار تملكني لشوان، ولم يخرجني منه سوى قول الرجل وهو يبتسم: نأمل أن نراك دائما فنحن في خدمتك، والمحل محلك.

كان المال في يدي، وكنت أحس أنني أحمل جمرة متقدة تلهب يدي، وتواردت في لحظة واحدة على ذهني كل الأفكار والحجج المتضاربة، التي ناقشتها أو سمعتها أو طرحتها، واختلطت على الأمور، فما عدت أعرف ماذا أصنع، وأخرجت في وقوفي، والرجل ينظر إلي مبتسما، فلم يكن من المعقول أن أبقى واقفا، فتحركت قليلا، ونظرت فوجدت يدي قد أصبحت في جيبي، وأن المال قد استقر فيه، ووجدت يدي تمتد إلى الرجل مصافحا ومودعا.

وامتطيت السيارة، كنت مذهولا لا أكاد أسيطر على نفسي ولا على السيارة.. كيف حصل هذا؟! أية قوة هذه التي غلبتني على نفسي فدفعني إلى قبول المال، هل صحيح أنني أنا أخذت المال من الرجل؟!؟

فأنت تعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أنكر على الرجل أن يقبل الهدية، وأن يأخذها لنفسه، وبين أن هذه الهدية إنما كانت بسبب وظيفته وعمله وليست لشخصه، فهي لم تقدم له لذاته، وإنما قدمت إليه لأنه يقوم بجمع الصدقات، فهي ليست من حقه، ولا تنس أن الهدايا من الرشا، فكثير من الناس قد يكون له حاجة لدى آخر فيقدم له هدية حتى يحمله خجلا على تأمين حاجته، وهذه الهدية لو فكرت فيها لرأيت أنها رشوة مستورة وقديما قالوا: «أطعم الفم تستح العين».

فهل البائع يجبك لشخصك، ويريد أن يكرمك، لأنك فلان من الناس؟ بالطبع لا.. إنه شرك يا صاحبي.

قال أحمد: هناك فرق بين قصة صاحب الزكاة وبين ما نحن فيه، فذاك لم يكن يبذل جهدا في الحصول على أفضل الأنواع والأسعار، فما يحصله من مال أو كراع محدد ومعروف، رسم الشرع حدوده. أما هنا فنحن أمام جهد شخصي قائم، نبذله بأنفسنا، ويمكن أن يفكر الإنسان أنه يستحق التعويض عليه.

قلت: يا أحمد هذا تلبس من الشيطان.. وهنا اضطرت إلى السكوت فقد دخل حسن، وما كنت أريده أن يسمع حديثنا.

صحيح أنه قد انقطع الحديث بيني وبين أحمد لكن حديثه ظل يراودني كلما خلوت إلى نفسي، كنت أحس أن هناك خلا في حجة أحمد، وأنه ليس على حق، لكنني كنت محتاجا إلى بعض الصفاء الذهني لأجد هذا الخلل.

كنت أحس أن القضية واحدة، وإن اختلفت فيها بعض الصور، لكن الشيء الذي كان واقرا في نفسي أن هذا المال يناله الإنسان من غير جهد يبذله، وأن الموظف الذي يشتري بضاعة لمصلحة المؤسسة التي يعمل فيها إنما هو وكيل عن صاحب المؤسسة، فكل ما يصل إلى يد هذا الموظف من خير يجب أن يعود إلى الأصل. لكن بعض الهواجس من الأفكار التي طرحها أحمد والتي كنت أسمعها من زملائنا العاملين عند الجيران كانت تحفر في دماغي، محاولة أن تثبت أقدامها، وأن تثبت بنفسي، فنشوش علي أفكار، وتضعف من مقاومتي.

وتتابع الحوادث سريعة، فإني الركود التجاري الذي كنا نحس به منذ زمن راح يزداد يوما بعد يوم، واضطر بعض أصحاب المؤسسات إلى تخفيض رواتب العاملين لديهم، ونالني ما نال الآخرين من تخفيض فآلني، وبعث في نفسي التفكير في المستقبل وهمومه، فقد كنت أمل خطوة إلى الأمام فإذا أنا أرجع خطوة إلى الوراء.

واكتشف صاحب المؤسسة تلاعب حسن بأمواله، وزيادته في الأسعار، واختلاسه جزءا من ذلك المال، وأخذ العمولات لنفسه، فصرفه من العمل، وأسند إلي مهمة شراء حاجات المؤسسة، إلى جانب كوني مديرا للمبيعات، فزادت مسؤولياتي، وأحسست بمزيد من الإرهاق المعنوي والمادي.

كنت قبل ذلك أعيش امتحانا واحدا، وهو امتحان الأمانة في البيع وإعطاء العمل حقه من الرعاية والأمانة، وأصبحت الآن أعيش امتحانا آخر أشد وأصعب وهو امتحان الأمانة في الشراء.

وزادت المناقشات والأحاديث والتعليمات كلما جلسنا لتناول طعام الغداء أو شرب الشاي، فقد أصبح تخفيض الرواتب عنصرا مؤيدا لأولئك الذين يقولون بجواز أخذ العمولات، بل طرح فكر جديد في تعليل أخذ العمولات، وهو أن تخفيض الرواتب أمر قهري، فرضه صاحب العمل على العامل، مستغلا حاجته للعمل فهو يعلم أنه محتاج للعمل، وأنه غادر

أيمكن أن أصنع هذا وأنا الذي أمضي الساعات مناقشا ومبيناً أن هذا المال ليس من حقي.. ووضعت يدي على رأسي ثم مددتهم إلى عيني وبدأت أفركهما.. أنا في حقيقة أم في خيال، يا الله ماذا جرى؟ كيف فعلت هذا؟ كان يجب ألا أضعف منذ أول لحظة، بل كان يجب أن أرفض المال وأعتذر عنه.. والآن ماذا أصنع به أعود إلى الرجل وأعيده إليه؟ كيف.. ماذا سأقول له.. هذا غير معقول.

وصلت إلى المؤسسة وأنا شارد الذهن مشيت التفكير، وأوقفت السيارة أمام باب المؤسسة، ولم أستطع النزول من السيارة، كنت بحاجة إلى هدوء في أعصابي، وتركيز في أفكاري، ولم أكن أدري ماذا يجب أن أصنع.. وجاء العامل من داخل المؤسسة، وانحنى على نافذة السيارة وقال: خير يا أستاذ هل هناك شيء؟ قلت: لا.. ولكن أنزل البضاعة. ودخلت المؤسسة وجلست خلف المنضدة، كنت أحس كأنني أحمل قنبلة في جيبتي تكاد تنفجر ما بين لحظة وأخرى، وقدم أحمد مسلماً فرددت سلامه بفتور وأطرقت في الأرض.. وتبادر إلى ذهني خاطر يقول لا ريب أن أحمد يعرف ما صنعت، ويعلم بأمر المال، وحضر الآن ليس للسلام علي ولكن ليقول لي: لقد سقطت يا أستاذ عند أول امتحان.. إنه سيسخر مني وسيهزأ من حديثي السابق عن الأمانة، وسيقول لي: ما هذا يا أستاذ؟ أهذه هي حججك؟ تحرمها على غيرك وتستحلها لنفسك.. ليس عيباً عليك؟ وحركت رأسي من غير أن أشعر وصحت: لا.. لا.. وقال أحمد: لا ماذا يا أستاذ؟ وانتبهت فقلت: لا تتركوا البضاعة مربوطة بل فكوها وضعوها في مكانها.

مددت يدي إلى جيبتي وتحسست المال.. وظننت أن أحمد يراه بعينه، ويعلم كم هو، مع أنني ما عدته ولا عرفت مقداره.. وقلت لنفسني: هل جئت يا رجل، لقد كنت وحدك، وما كان معك أحد، وحين أخذت المال لم يكن هناك أحد، فمن أين سيعرف أحمد بأمر المال.. الهدأ قليلاً وفكر ولا تتصرف برعونة.

حاولت عبثاً تركيز أفكاري.. ولكنني لم أستطع، كنت مضطرباً، فهذه أول مرة في حياتي أمر بمثل هذا الامتحان وما كنت قادراً على الانحياز إلى فكرة دون أخرى.. ومددت يدي إلى جيبتي، أريد أن أخرج المال، وأضعه في صندوق المؤسسة، وأستريح.. لكن يدي جمدت في جيبتي، وجاء الشيطان يقول لي: اصبر ولا تتسرع.. لا بد لك من أن تصل إلى حجة وراي.. ثم تصرف.. ماذا لو وضعت هذا المال في صندوق المؤسسة واتضح بعد ذلك أنه من حقك؟ إنك تكون بذلك قد خسرت المال، ولن تستطيع إخراجها من صندوقها.. وأحسست أنني كنت أضعف شيئاً فشيئاً أمام إغراء المال، وأني كنت أود أن أجد حجة لأحتفظ بالمال ولو كانت ضعيفة.

ودخل زبون فأنصرفت إليه مليياً حاجاته، وشغلت عن موضوع المال، وجاء زبون ثان وثالث.. وهكذا حتى حان وقت إغلاق المؤسسة، والانصراف إلى تناول طعام الغداء، والاستراحة بعض الوقت، فالحر شديد والراحة ضرورية.

تركت المؤسسة إلى البيت، ودماعي تضح فيه الحسج والبراهين والأفكار والأقوال دونما قرار أكيد ثابت.. لقد دخلت دوامة النقاش، فكاد يضيع الحق ويختلط الخطأ بالصواب، مع أنني لو بقيت لإحساسي الداخلي لجزمت مباشرة أن ما صنعت كان خطأ، وأن هذا المال يجب أن يعود إلى صندوق المؤسسة، فتحت الباب وولجت الدار وكانت مفاجأة مرعبة، كانت زوجتي قرب الباب والدماء تسيل من وجهها ويديها.. كان

منظرها مثيراً للخوف والدهشة واضطربت وقلت متلهفاً: خير إن شاء الله.. ماذا جرى ولماذا تسيل الدماء منك.. خبريني؟

قالت: لا تخف الأمر بسيط.. كنت أهين مادة الطعام وأردت أن أفتح زجاجة الشراب الغازية، فاستعصت علي، ويظهر أن كمية الغاز فيها كانت زائدة على الحد اللازم فلما ضغطت عليها أريد خلع ساداتها انفجرت، وتحطمت. وتطاير الزجاج في جسمي كما ترى.

أسرعت بزوجتي إلى المستشفى وأنا أسأل الله أن يكون الأمر بسيطاً وألا يكون هناك خطر عليها، وتلقفتها غرفة الإسعاف، وتداركها ثلاثة من الأطباء فحقنوها منوماً، ثم راحوا يستخرجون قطع الزجاج واحدة إثر أخرى..

وقفت مضطرباً متضرعاً إلى الله أن يرحم زوجتي بلطفه، ونسيت مال المؤسسة وما أورتني من اضطراب، وخرج أحد الأطباء من غرفة الإسعاف فأسرعت نحوه متسائلاً فقال: لا تخف الأمر بسيط، وقد انتهينا وما هي إلا نصف ساعة وتصحو زوجتك. لقد كان هناك لطف إلهي عظيم، إذ لم تدخل قطعة زجاج في عينيها.. إذن كانت ستفقد بصرها.

حين أردت العودة بزوجتي إلى الدار كان علي أن أدفع أتعاب المستشفى، وأمسكت بقائمة الأتعاب، وتذكرت أنني لم أحضر معي مالا زائداً فقد شغلتنى العجلة عن ذلك.. ولكن.. لا.. هناك المال الذي قدمه إلي الرجل.. وأدخلت يدي في جيبتي وأخرجت المال كما لفه الرجل حين أعطاني إياه وفككته وعدته..

يا الله.. هل هذا معقول.. أنا في حقيقة أم في حلم.. لقد كان المال مساوياً تماماً للمبلغ المطلوب في قائمة المستشفى ليس فيه قرش زيادة، ومددت يدي بالمبلغ إلى موظف المحاسبة بينما كانت يدي الأخرى تنساب على خدي تسح دموعاً كانت تشق طريقها نحو الأرض.

وحين ركبنا السيارة مع زوجتي عائداً إلى الدار لاحظت زوجتي أنني كنت أتمتع وأرفع برأسني نحو السماء والدموع تسيل على وجنتي، وقالت: أألى هذا الحد تحبني وتخاف علي.. حتى أنك رحت تبكي؟!

لم أجيبها فقد كنت مشغولاً عنها، لقد كنت أبتهل إلى الله أن يسامحني وأن يغفر لي والدموع تنساب من عيني بلا إرادة، وأنا أعاهد الله على عدم العودة لمثل هذا العمل ما حييت ولن أخذ أية عمولة لنفسني.. فذاك مال حرام والله قد أعطاني درسا لن أنساه ما حييت..

حين رجعت إلى المؤسسة بعد الظهر متأخراً، لقيت أحمد واقفاً على بابها، فسلمت عليه وأنا مشرق النفس منبسط الأسارير ثم قلت: يا أحمد استفت قلبك ولو أفتاك المفتون فالإثم ما حاك في الصدر، فاستبرئ لنفسك وعرضك ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

ونظر أحمد إلي متعجباً.. ولم يفهم.. أما أنا فقد كنت فاهماً لكل كلمة.. وكنت عارفاً طريقي فقد اتجهت إلى الصندوق الحديدي وفتحته ثم مددت يدي إلى جيبتي وأخرجت مبلغاً من المال يساوي ما أعطاني الرجل من عمولة ثم دسسته في الصندوق.. وأمسكت بالقلم لأسجل على الدفتر.. عمولة على ثمن البضاعة تحذف من المبلغ المدفوع.

والقيت القلم من يدي.. وشعرت أنني قد أقيت الإثم والحرام من يدي، وأني عدت نظيفاً كما بدأت.. لست في حاجة إلى من يقنعني أو يناقشني.. بأن العمولة من حق صاحب العمل.. والله قد أقنعني.



من مكتبة الأدب الإسلامي



الأدب الأفغاني الإسلامي

للدكتور محمد أمان صافي
عرض: د. سمير عبد الحميد

■ صدر حديثاً عن عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كتاب الدكتور محمد أمان صافي «الأدب الأفغاني الإسلامي» وهو حلقة من سلسلة آداب الشعوب الإسلامية التي تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. والكتاب يتناول أدب لغة البشتو، التي أبدع بها أدباء أفغانستان، بجوار إبداعهم في اللغة الفارسية (الدرية) أو الكلاسيكية إذا صح التعبير.

والمؤلف أفغاني المولد والنشأة والثقافة، عاش حياته العملية ما بين أفغانستان موطنه، والبلاد العربية منتجعاً الثقافي والعلمي، ولا يزال يؤدي خدماته الطبية في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وله أبحاث ومؤلفات عديدة نشرت معظمها باللغة العربية، في مجال الأدب العربي والحضارة الإسلامية. وهكذا جاء كتاب الأدب الأفغاني الإسلامي على مستوى طيب من جميع جوانبه، بدأه المؤلف بمدخل عن أفغانستان وأقاليمها مع عجلة عن تاريخها، ثم بدأ الباب الأول، فنذكر انتشار الإسلام ونشأة الأدب الإسلامي، وشرح كيف انتشرت العربية في أفغانستان ثم زاحمتها اللغة الأفغانية (البشتو أو الفارسية).

في الفصل الثالث من الباب الأول كتب المؤلف عن حروف الكتابة في البلاد الأفغانية وتطورها، وأثر العربية في اللغات الأفغانية، وعرض بعدها في الباب الثاني للأدب الأفغاني، وهو يمضي في موكب الحضارة الإسلامية، فتلخص حديثه عن طلائع الشعر الأفغاني في زمان الدولة الغورية، مع التمثيل بنماذج شعرية. وانتقل بعد ذلك لبيان تطور الشعر من العصر اللودي إلى العصر الغوري (٣٥٠ - ١٠٠٠ هـ = ٩٦١ - ١٥٩١ م) وهنا وردت أسماء شعراء كبار من أمثال الشيخ رضي اللودي، والأمير نصر بن حميد اللودي والشيخ إسماعيل السربني

والشيخ تيعن بن كاكركاكري ومك يار. الذي نظم ما ترجمته:

«إن الله معنا بقدرته، وهو يلهمنا طريق النصر
أن لنا أن نخوض حرباً ضارية

في بلاد غريبة نائية
فتنبهوا يا معشر المجاهدين والمناضلين

إن الله ناصرنا بقدرته
يلهمنا طريق النصر..

نحن أسود في ساحات الوغى والقتال
لأن الإسلام ديننا وهو مصدر إلهامنا

والله ناصرنا بقدرته
يلهمنا طريق النصر»

ومن الشعراء الذين ورد ذكرهم في هذا الفصل الشاعر ملك يار الهوتي الذي جاهد مع أبيه جحافل المغول دفاعاً عن العقيدة والوطن، واشتهر بمنظومته التي تمثل الفكر الشعبي في الأدب الأفغاني ولها قيمة أدبية كبيرة:

«إن نهر تركن يجري مسرعاً

إنه يجري مسرعاً

يفيض بالماء من شاطئ إلى شاطئ

والقلب يطلب بإلحاح شديد اللقاء بالحبیب

ومع أنك نهر، مع أنك نهر لكني أناديك..

أناجيك.. يا نهر تركن بأن يجعل الله ماءك
غوراً

ليتمكن الفؤاد من الوصول بطمأنينة إلى
الحبیب

ولو أنك سيل.. سيل جارف

فالسيل في الحقيقة سيل الفراق

جرف الفؤاد كالتن اليابس

رافعاً بكاءه بصرخات النياح



مغلوباً على أمره ذليلاً بآلام الهموم..
انتقل المؤلف في الفصل الثالث إلى الحديث عن الأدب الأفغاني في عصوره الذهبية (١٠٠٠ - ١٣٠٠ هـ = ١٥٩١ - ١٨٨٢ م) وركز على ستة من أعلام الأدب الأفغاني، منهم بير روشان، وأخوند حال ختک، وعبدالرحمن باب، وأحمد شاه بابا، وبعضهم كتب نثراً، وبعضهم كتب شعراً، وبعضهم كتب نثراً وشعراً
أفرد المؤلف الباب الثالث والأخير لأدب الجهاد الإسلامي الحديث، فكان الفصل الأول للشعر والثاني للنثر، وقدم نماذج شعرية رائعة لشعراء شاهدوا بأنفسهم الجرائم الوحشية التي ارتكبتها الشيوعيون في البلاد.

وأبدع الشعراء فعبثوا في أشعارهم التي تناولوا فيها الطبيعة في بلادهم عما يخوضه المجاهدون من معارك ضد المحتل.

ومتلماً كان للشعر دوره في الجهاد كان للنثر الأفغاني دوره أيضاً، وهذا ما بينه الدكتور محمد صافي في الفصل الثاني والأخير من كتابه الرائع الأدب الأفغاني الإسلامي، فقد أورد المؤلف نماذج من النثر الفني للزعيم محمد يونس خالص وللشيخ قيم الدين كشاف والأديب توريالي زازي والأديب سيد محيي الدين هاشمي وللزعيم عبد رب الرسول سياف.

ومما يزيد من قيمة هذا الكتاب الجيد ورود النصوص الأصلية المترجمة بلغة البشتو بعد كل فصل مما يخدم الدارس المتخصص في الآداب الشرقية، بالإضافة إلى ثبت المصادر والمراجع وتأصيل كل ما ورد في البحث من معلومات. ولا شك أن عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام كان لها دورها في صدور الكتاب بهذه الدقة وبهذا الشكل نظراً لأن ما يصدر من العمادة من مؤلفات وأبحاث يخضع للتحكيم والمراجعة الدقيقة. والكتاب يعطي صورة واضحة عما بذله الدكتور محمد أمان صافي من جهد وافر في سبيل إخراج هذا الكتاب ليسد به فراغاً في المكتبة العربية، وليضيف حلقة ذهبية إلى سلسلة آداب الشعوب الإسلامية.

نحو مذهب إسلامي في الأدب والفن

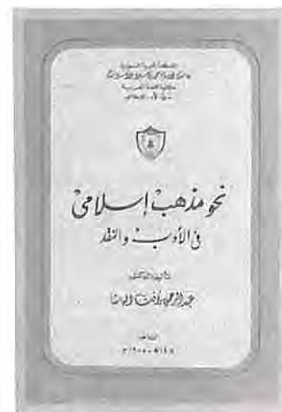
للدكتور عبدالرحمن الباشا
عرض: د. خليل أبو ذياب

■ هذا الكتاب إحدى الثمرات الفكرية الرائدة التي تفتتت عنها عبقرية الأستاذ الكبير الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا - رحمه الله رحمة واسعة - مجسدة لجهوده الخيرة في مضمار الدراسات الإسلامية والأدبية؛ وقد جاء هذا الكتاب محاولة جادة لتقرير ما هية الأدب الإسلامي وتحديد خصائصه وتوصيف مظاهره الإبداعية والفكرية، وقد وقع الكتاب في زهاء خمسين ومائتي صفحة تناول فيها طائفة من القضايا والموضوعات التي دأب الباحثون والمنظرون للأدب الإسلامي على مناقشتها وبحثها في دراساتهم. وكانت القضية الأولى العتيدة «موقف الإسلام من الأدب عامة والشعر خاصة» أولى قضاياها وفصوله، مستعرضا فيها أغلب الإشارات والنقول الدينية التي ارتبطت بها تأييدا ومدحا أو رفضا وقدحا، منتهيا إلى «أن الإسلام لا يحارب الشعر لذاته وإنما يحارب الفاسد من مناهج الشعراء.. ذلك لأن الشعر باب من أبواب الكلام وضرب من ضروبه، فصالحه كصالح غيره من الكلام، وفاسده كفاسده وهو مرفوض. وما يقال عن الشعر يقال عن فنون الأدب الأخرى كالخطابة والقصة والأقصوصة وغيرها».

وفي القسم الثاني درس أهم المذاهب الأدبية الغربية وهي «الكلاسيكية والرومانتيكية والواقعية والطبيعية والفنية (الفن للفن) والرمزية والوجودية» حريصا على تسجيل موقف الإسلام منها، وقد عني بتحليل تلك المذاهب ورصد أبعادها الفكرية والفنية والدوافع التي كانت وراءها؛ وهو معني بعمق بعرض تلك المذاهب على المنهج

الإسلامي؛ ليحدد مدى مشروعيتها ومصادقيتها.. ولتطبق عليها مقاييس الأدب الإسلامي المحددة وما يدعو إليه من التزام فني وخلق، حتى إذا فرغ منها مقررا فسادها ومصادمتها للمنهج الإسلامي عمد إلى توصيف المذهب المناسب الذي ينبغي أن يلتزم، ما دامت تلك المذاهب غير صالحة، مؤكدا حاجتنا إلى مذهب أدبي خاص متميز يفي بحاجتنا الإبداعية والفكرية على السواء، وذلك هو المذهب الإسلامي في الأدب، أو «الأدب الإسلامي» القادر على التعبير عن قضايا الأمة الإسلامية وآلامها وهمومها وطموحاتها. ويستعرض الباحث طائفة من العلماء والباحثين الذين دعوا إلى هذا المذهب من أمثال أبي الحسن الندوي، وسيد قطب، ومحمد قطب، وعماد الدين خليل وغيرهم حتى تجاوزت جامعة الإمام هذه الطموحات والطروحات عندما أدخلته في مناهجها تحت «منهج الأدب الإسلامي»، وما أفرز من بحوث الماجستير والدكتوراه. ثم قدم الباحث تعريفا للأدب الإسلامي، محددا معالمه الأساسية تحديدا لا يكاد يخرج عن تعريفاته العديدة عند الدارسين وهو «التعبير الفني الهادف عن واقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب تعبيرا ينبع عن التصور الإسلامي للخالق عز وجل ومخلوقاته».

كما نراه يفرد قسما من كتابه لتحليل ظاهرة التصور الإسلامي وأبعاده الفكرية للخالق سبحانه وللكون والإنسان، ليعرضها على إبداعات الأدباء لتحديد ما هو إسلامي منها وما هو غير إسلامي، من خلال الشواهد الكثيرة التي سردوها.. وهو مرة أخرى يحاول أن ينبّه على تجاوزات الآداب الغربية القديمة والحديثة في تلك القضايا والجوانب. كما أفرد قسما من كتابه لدراسة



الخصائص العامة للأدب الإسلامي في إطار الموازنة من جديد بينه وبين الآداب الأخرى، وجاءت أبرز تلك الخصائص متمثلة في «الغائية الهادفة» و«الالتزام» و«الأصالة» و«التكامل» و«الاستقلالية» و«الفاعلية المؤثرة»، ونراه يولي بعض تلك الخصائص طرفا من عنايته ليعالجها بصفة خاصة كقضية «الالتزام»، خصوصا أن هذه القضية ارتبطت بمذهبين اجتماعيين كبيرين هما الماركسية الشيوعية والوجودية مركزا على موقف الإسلام والأدب الإسلامي من قضية الالتزام مؤكدا أن الأدب الإسلامي مارس الالتزام منذ نشأته الأولى في ظل الدعوة الإسلامية من خلال ممارسات الشعراء الإبداعية.

وتثير قضية الالتزام إشكالية التوافق أو الاشتراك فيها بين الأدب الإسلامي والآداب الشيوعية والوجودية تدفع الباحث لتحديد الفروق الجوهرية للالتزام بين الأدب الإسلامي وذاك الأدبين، ومنها «الفرق بين الإلزام والالتزام» و«مصدر السلطة الإلزامية أو الالتزامية» و«الفكر الذي يقوم عليه ذلك الالتزام» و«موقف الأديب من التعبير عن الذات والجماعة»، كما عالج قضية «الحرية» في الأدب ومدى التعبير عنها. كذلك عالج بعض القضايا الدينية الاعتقادية في ضوء المنهج الإسلامي للأدب، ومنها قضية «القضاء والقدر» و«الشر والردية» و«العلاقة بين الجنسين».

ونراه يفرد فصلا لدراسة القصة وحاجة الأدب الإسلامي إليها للتعبير عن قضاياها الفكرية والاجتماعية خاصة أن إرهاصات هذا الفن شاعت في نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف في محاولة لمواكبة الأدب الإسلامي للتطور الذي أصاب الأدب العالمي، وقد حرص على تحديد أهداف القصة الإسلامية؛ وللغاية ذاتها أفرد قسما آخر للمسرحية كنوع أدبي متميز في هذا العصر في محاولة لتوظيفها لحمل المفاهيم الإسلامية محاولا تحديد الفروق بينها وبين المسرحية الغربية مبرزاً عناصرها الإسلامية التي يجب توافرها فيها خاتما كتابه بنموذج/ خلاصة موجزة لمسرحية إسلامية تدور حول قصة يوسف عليه السلام دون أن يشفعها بدراسة تحليلية تكشف عن أبعادها الفنية ومظاهرها الإبداعية وغاياتها الفكرية.

